كتاب."بيروتنا"لمختار عيتاني وعبد اللطيف فاخوري:حقائق ومرويات وصور مضمخة بالحنين في غياب المراجع(صورة)

المؤلف: باشا عبيدو

التاريخ: 10-08-1996
رقم العدد:7462

الكتابة عن بيروت ليست سهلة. ثمة من يستسهل الكتابة عنها، الا ان الاستسهال غالبا ما ادى الى نوع من الكتابة الفلكلورية او الموؤدة بقوة الفكرة. العميد مختار عيتاني والمحامي عبد اللطيف فاخوري، اصدرا كتابا لا يواري من عنوانه: »بيروتنا«. وهما في إصدارهما الكتاب هذا، أرادا تدوين ما غاب تماما او ما هو على وشك الغياب بعد ان تحول الى نثار في ذاكرة عافتها الصحة تحت وطأة ازمنة الاستهلاك الجديدة. جاءا بيروت من حبهما المدينة ومن بيروتيتهما، معتمدين على ذاكرة المعمرين والمخضرمين من البيارتة وعلى بعض المصادر والمراجع. لن نقف موقفا متشددا من تغييب الكاتبين اسماء المعمرين والمخضرمين الذين اعتُمدت شهاداتهم. وكذلك لن نقف مثل هذا الموقف، امام غياب المصادر والمراجع، ولو ان ثبتهما بات ضروريا في الآلية نفسها التي انطلقت منها عملية الكتابة. اذ ان التدوين يهدف الى المحافظة على ذاكرة مديدة. وهي ذاكرة لا بد من تعزيزها في إدراج اسماء المراجع، لكي يقصدها من يريد او يرغب. كتب لورته وغيز عن بيروت اجمل الكتابات. كما كتب بعض القناصل الفرنسيين والاوروبيين. ولعل عيتاني وفاخوري اعتمدا مدونات لورته وغيز، بعض مدوناتهما في اماكن قليلة، وخصوصا في الكلام على مساحة المدينة العثمانية وما أحاطها من وقائع تاريخية، حملتها الى محاكاة حال الحداثة التي قامت فيها منذ دمار سورها الكبير. المرجع يفرد المجال واسعا امام عملية تثبيت صورة بيروت الغائبة. انها صورة تكوينية، لذا فان حضورها في هيئتها البعيدة يبدو لازما. وهو لن يحدث الا اذا اشارت الكتابات الحديثة، مهما كان غرضها، الى هذه المراجع. لكي

تحفظ بيروت في حفظ مدوناتها ولو جاءت من قناصل اجانب او من مجموعة من العابرين كالأسقف لوبتنسكي الذي أقام وصف حال المسرح في القرن الثامن عشر. ولولاه، لكنا أضعنا ذلك المناخ الفودفيلي، الذي اشار اليه، عبر ترجمة اللبناني للفودفيل. المرجع المرجع قضية هامة. ولن يخفف من الامر محاولة استئثار البيروتي، من حبه لبيروت، بهذا المرجع وتضمينه كتاباته من دون إعلان. انني لا أشير الى محاولة خبيثة. بل على العكس من ذلك تماما. ولكن غياب المرجعية، غياب محدود للمصداقية، تلك التي قامت على بيروتية الكاتبين وعلى علاقتهما الوثيقة ببيروت. ثمانية فصول. ذكر في الاول، تفاصيل وافية عن طرقات المدينة وأسواقها وساحاتها. وجرى تطرق الى بيوتها. وتم تخصيص الفصل الثاني بالعادات الاجتماعية من لباس زواج وولادة وختان وجنازات، وتضمن الفصل الثالث ذكر المواسم والاعياد. كمدفع رمضان والعيدين وحرج بيروت وعادات البيارتة في أربعاء أيوب. كما تطرق البحث فيه الى المنتزهات والمقاهي والمسارح، الى غناء أهل بيروت. اما في الفصل الرابع فقد تمت الاشارة الى صفات القبضايات ولباسهم ومواقفهم. مدعما بالصور النادرة لأشهر قبضايات بيروت. فيما خصص الفصل الخامس بالمدارس والكتاتيب والكشاف وأهم الالعاب الرياضية. في حين تناول الفصل السادس المواصلات من المرفأ والتراموي الى المطار والطائرة. وثمة بحث في الفصل السابع حول التدابير التي اتخذتها البلدية، وتوسع في الحديث عن الشرطة وتنظيماتها، مما لم يكتب قبل ذلك. وجرى تناول في الفصل الثامن لأهم الصحف والمجلات التي كانت منتشرة. وإيراد الكثير من امثال البيروتيين الشعبية وبعض قصصها. وأنهي الفصل الاخير بفهرس للعائلات البيروتية. مروحة عريضة من الاشارات الدلالية الواضحة او المتضمنة. لقد استغرق البحث اوقاتا ومددا طويلة. لا شك في ذلك. ولو ان ثمة خطا بيانيا متدرجا اختطه المؤلفان، الا ان البساطة التي امتدت لتطبع الكتابة وعملية التبويب في التتابع، بدت مثرية الكتابة بدل ان تفقدها بعضا من وهجها او رونقها. نفحات شعرية صحيح ان الكاتبين لم يطرحا نفسيهما كأديبين، يعملان على الجملة وصوغها من وجهة ادبية خالصة. الا ان النفحات الشعرية لا تغيب عن هذا الفصل او ذاك، في ضربات اشبه بضربات الاكواريل الشفافة. وهي ضربات كانت لتفقد بعض شفافيتها، لو ان تجميع المادة او التجميع المعلوماتي، جرى ضبطه في وجهة نظر، احالت الافكار الخام والاشكال الخام على ميزة أيديولوجية. تغيب الايديولوجيا تماما، ولكن ليس في الاستقصاء. فحب المدينة، أقام ناصية خاصة بفكر محبتها. الا ان الهرب من الوقوع في مطبات التنظير منح المادة حيوية. كما منحها وظيفة محددة، هي التدوين، بعيدا عن الادعاء والتزيين المجاني.

بحيث لا يحضر الا ما هو ضروري. وذلك بغض النظر عن أية وظيفة ثقيلة للحضور. يبنى الحاووز في وقته. فيجيء ذكره في إضاءة لطيفة. هكذا بني حاووز الدحويلة في الاشرفية وحاووز الولاية في حوض الولاية الذي بقي حتى سنة 1930. وحاووز الساعاتية بجانب فندق هوليداي ان والذي بقي صنبوره يتدفق ماء عذبا حتى العام 1943 (ص17). اما اربعاء أيوب، فلها قصة معروفة. الا ان غير المعروف، هو ارتباط هذه المناسبة السنية البيروتية بمناسبات مسيحية، وبالاخص عيد الفصح الشرقي. اذ كانت النساء الدمشقيات يخرجن جماعات يوم »أربعة المرتعشة«، وهي آخر اربعاء من شهر آذار عند البعض وآخر أربعاء تسبق عيد الفصح الشرقي عند البعض الآخر. حتى ساد الاعتقاد ان التي تبقى منهن في البيت ذلك النهار، تتعرض للامراض والصداع طيلة السنة، اضافة الى تعرضها للاصابةبالرعشة(ص41). تحاط المعلومة بالضربة الاجتماعية. وهي ضربة تقوم غالبا على خلفية دينية بعيدة عن التعصب والراديكالية. اذ يعرف عن اهل بيروت هوسهم بالثنائية الدينية. كأن لا يجيء ذكر لمسلم الا ويتلوه ذكر لمسيحي. وان لا يجيء ذكر لمسيحي الا ويتلوه ذكر لمسلم. حتى في حكايات الحواويز. ثم ان أربعاء أيوب تجيء مشفوعة بحضور عيد الفصح الشرقي. نزعة الى طوباوية غير مؤذية ولكنها مكلفة. وخصوصا حين يتم تقصد ذلك. كأن لا يذكر الشيء الا بذكر الشيء الآخر. منطقة مسيحية فمنطقة إسلامية، علامة إسلامية وعلامة مسيحية. حتى ان اللبنانيين بجلّهم سوف ينقادون الى مواجهة الايطاليين حين قصفوا بيروت، إسلاماً ومسيحيين. ضربة اجتماعية اما الضربة الاجتماعية المحكي عنها، فهي تغلي بالمعلومات غير الساذجة، في أمكنة. أردت ان اقول ان مادة الكتاب المبسطة، تبتعد قدرا عن السذاجة، وان لم تبتعد عن الرفقة والعيش المشترك. كما جاءت عليه في النصوص الاولى لقيام الجمهورية اللبنانية. وهي رفقة غير مخصوصة بالكاتبين، بل انها تتعداهما الى كافة البيارتة الذين ادرجوا مفهومهم هذا حتى في أزجالهم وأغنياتهم الشعبية: إيد البنت وإيد الشب بعلم الأم وعلم الأب غرقانين بين النهرين نهر ابراهيم ونهر الكلب(ص43). وثمة نصيب للثقافة والفنون في الكتاب. من حفلات خيال الظل (كراكوز وعيواظ) في مقاهي البسطة الى سهرات الحكواتي في مقاهي البسطتين والطريق الجديدة، حيث تروى قصص بطولات الظاهر بيبرس وسيرة عنترة والزير سالم وتغريبة بني هلال. وصولا الى السينما، السينما الصامتة والناطقة. ولعل الصور التي يحتويها الكتاب تقدم اضافة فعلية، في استنطاقها أزمانها البعيدة. اللونان الاسود والابيض، جميلان، جذابان، باهران. وخصوصا في صور القبضايات من عبيدو الانكدار الى احمد البواب واحمد عبد العال وعبد الغني دبيبو ويونس البحري ونخلة

العربانية وعثمان عبد العال وعكيف السبع وعبد اللطيف النعماني. صور ممسوحة بأغبرة الزمن الماضي، حيث كان القبضاي غيره اليوم. قبضاي متمسك بالرجولة والحفاظ على الكرامة والوقار والهيبة والرزانة، يفخمون بعض الالفاظ ويمطون بعض الكلمات. ويتبادلون فيما بينهم في مسامراتهم عبارات معينة يحرصون عليها (ص123). قبضايات ذوو نفحة وطنية اكيدة. كعياري بغداد وحرافيش مصر. يذكر ان احمد آغا الشرقاوي شيخ المرفأ ورفاقه في البحرية، تزعموا سنة 1908 حملة مقاطعة البضائع النمساوية كالسكر والطرابيش وأجبروا التجار على التقيد بالمقاطعة. وساندهم في ذلك القبضايات في صيدا وطرابلس ودمشق وسائر مدن الشام. كتاب يدعو الى مقارنة. اما النتيجة فحنين خالص، الى الصور والمرويات القديمة. ما دوّن، هام. ولو عابه غياب المرجعية. ذلك انه يبقى ذخرا لأجيال لا تعرف عن مدينتها ما تميزت به هذه المدينة منذ أواخر القرن الماضي، في إسار متعة مفيدة. عبيدو باشا

البحث في الأرشيف الكامل لجريدة "السفير"

الكلمات الدالة

فاخوري عبد اللطيف | عيتاني مختار | بيروت

شروط الإستخدام

جميع الحقوق محفوظة، شركة السفير ش.م.ل

للتواصل معنا archives.assafir.com